من سمات السيرة عند الشيخ الطنطاوي في كتابه:

رجال من التاريخ

بقلم: د. عبد الله بن صالح المسعود
السعودية

وأنا أقلب صفحات هذا الكتاب «رجال من التاريخ» تذكرت كلمات أستاذنا د. عبد الرحمن رأفت الباشا -رحمه الله- عندما كان يغرينا بقراءة ما يكتبه أديب العربية الشيخ علي الطنطاوي -رحمه الله- ويقول: إياكم أن تنظروا إليه من خلال ما تشاهدون في برنامجه الذي يعرض عليكم إنما الحكم عليه من خلال ما يكتب فهو أديب من الطراز الأول، شاهدنا الشيخ علي الطنطاوي وقرأناه وازددنا قناعة بمواهبه وقدراته فهو صاحب الأسلوب اللطيف الممتع الذي يتسلل إلى قلوب مشاهديه وقرائه.

وحديثي في هذه المقالة عن كتاب: «رجال من التاريخ» الذي يتبادر إلى الأذهان أنه كتاب سير أو أنه سرد لحكايات رجال يختارهم من التاريخ، إلا أن قارئه يؤمن أنه شيء مختلف عن كل كتب السير، إنه كتاب متعة وكتاب ثقافة، وكتاب تاريخ، وكتاب تعليم للإنشاء وصوغ الأساليب الأدبية الراقية. إن هؤلاء الذين اختارهم إنما أراد أن يسجل لهم مواقف البطولة، وأن يخلد الأفعال المجيدة، ولم يعن بالرجولة معناها اللفظي لأنه سجل مواقف بطولية لنساء ضربن بسهم وافر في ميدان البطولة والمجد.

العنوانات :

- سيد رجال التاريخ «عن هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم».
- معلمة الرجال «عائشة – رضي الله عنها وعن أبيها».
- سيدة جليلة من سيدات المجتمع الإسلامي الأول «أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها وعن أبيها.
- أعظم قواد التاريخ القديم «خالد بن الوليد رضي الله عنه».
- قاهر كسرى «سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه»
- مأساة عالم «عروة بن الزبير في قصة قطع رجله»
- العالم العامل «الحسن البصري» رحمه الله.
- الخليفة الكامل «عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ورحمه»
- فاتح المشرق «قتيبة بن مسلم الباهلي رحمه الله».
- من ورثة الأنبياء «سعيد بن المسيب رحمه الله».
- الإمام الأعظم «أبو حنيفة رحمه الله».
- أكبر ملوك الأرض «هارون الرشيد رحمه الله.
- جمع الدين والدنيا «الليث بن سعد رحمه الله».
- ناصر السنة «أحمد بن حنبل رحمه الله».

إلى غير ذلك بأكثر من خمسين علماً خشيت الإطالة لو قمت بسردها لكن هؤلاء الأعلام مختلفو النزعات، يختار مرة من أول القرن ومرة من آخره يقول «لقد وعدتكم أن أضرب في هذه الأحاديث بكل سهم، وأسلك كل واد، وأتحدث عن رجال الفن كما أتحدث عن رجال العلم، وأن أجيئكم مرة مع شاعر أو موسيقي، كما أجيئكم مرات مع الأئمة والقواد[1]». لكن المهم أن نشير إلى أنه يختار – غالباً – صفحة مشرقة من صفحات هذا العلم الذي يريد الحديث عنه فيجعله مدخلاً ثم يتناول جوانب معينة يختارها بعناية، ويصوغها صياغة جديدة بأسلوب مشوق ممتع يقول: «كنت إذا أردت الحديث عن رجل، قرأت كل ما تصل إليه يدي مما كتب عنه، وقيدت في ورقة ما أختار من أخباره، وربما بلغ ما أقرؤه عنه عشرات أو مئات من الصفحات، ثم أعمد إلى خبر منها فأجعله مدخلاً إليها، وأحاول ما استطعت أن أتبع فيها أسلوباً ينأى بي عن جفاف السرد التاريخي، ويخلص من تخيل الكاتب في القصة الأدبية، لعلي أصل إلى الجمع بين صدق التاريخ، وجمال الأدب، فأوفق حيناً، ويجانبني حيناً التوفيق»[2].

لكن الذي لا مراء فيه أنه عميق النظرة إلى هذه الشخصيات، يغوص إلى دقائق وتفصيلات قد يغفلها المؤرخ أولا يوليها العناية اللازمة، لذلك يقول في موضع آخر «وأنا مولع بتحليل النفوس، نفوس الأحياء من الأصدقاء، والأموات من رجال التاريخ، وكشف خفاياها، ورد مظاهرها المعقدة الى عناصرها الأولى[3].

روح المعاصرة في كتابته :

«رجال من التاريخ» كتاب يوهمك أنه يتحدث عن العصور القديمة، ولكنه حاضر كأبرز ما يكون الحضور في معالجة القضايا المعاصرة، ونجده وهو يكتب عن رجال التاريخ يحسن التخاطب مع القارئ المعاصر، ويستلهم الأحداث السابقة لأخذ عظة أو درس للأحداث الجارية بلمحة تنفذ إلى الأعماق، أو بعبارة تربط الذكريات برباط وثيق إلي الحاضر. يقول عن الإمام أحمد رحمه الله عندما كان يعذب: «وانقطعت تكة لباسه «سراويلاته» فكاد يسقط وينكشف ورأه الناس يحرك شفتيه، فيقف اللباس مكانه وسألوه بعدُ فقال: قلت يا رب إن كنت تعلم أني على الحق فلا تهتك لي ستراً»[4].

د . عبدالرحمن الباشا

يعلق على ذلك فيقول: «خاف أن تكشف عورته وهو على هذه الحال واستسهل ما هو فيه على كشفها، فماذا يقول من يكشفها في الملعب للرياضة، وعلى الشط للسباحة، والمرأة التي تكشفها للرجل الأجنبي باسم الفحص الطبي بلا ضرورة ظاهرة ولا حاجة قاهرة»[5].

ومرة يتحدث عن نور الدين محمود فيقول: «تلفت حوله، فإذا الإفرنج في كل مكان، في كل ناحية لهم ملك وسلطان، وإذا هو يرى العدوان من أقرب الناس إليه: أمير دمشق، وهذه علتنا أبداً يا أيها السامعون، علتنا الانقسام والاختلاف ولو أننا تركنا الاختلاف بيننا، ما قوي علينا إنس ولا جان»[6] ويقول قبل ذلك بقليل: «وكان الإفرنج قد ملكوا أكثر البلاد منذ خمسين سنة لا خمس سنين وكانوا أعداد الرمال تمدهم أوروبة كلها، لا حفنة من يهود» فيعلق أنه لما أذيع هذا الحديث كان عمر دولة إسرائيل – قصف الله عمرها – خمس سنين[7] .

خفة الظل :

لم تفارق الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله الروح المرحة وخفة الظل طول حياته، سواء أكان متحدثاً أم كاتباً. يقول عن داره التي ولد فيها وسكن، وعين إماماً في الحارة وهو ما زال صغيراً: «وهي دار صغيرة في حارة الديمجية، ولدت أنا فيها، ونشأت فيها، ولما مات أبي سنة ١٣٤٣هـ عينت مكانه إماماً في مسجدها الصغير، ويدعى جامع رستم، وقالوا لابد للإمام من عمامة، كأن العمامة من شروط الإمامة، فأدرتها على رأسي، فقالوا: لابد من لحية، قلت: العمامة اشتريت قماشها، وأحكمت لفها، فمن أين آتي باللحية وأنا لم أكمل السابعة عشرة»؟

وما أورده في قصة شيخه الكافي الذي قال عنه: «وكان حضور دعواته مما أرغب فيه لأنني أستفيد منها في بطني وفي ذهني، وكان الكافي ينكر على أرباب الطرق الصوفية، حتى إنه كان في تونس في يوم يجتمع فيه الصوفية، بمناسبة لهم، ينشدون الأناشيد في مدح الرسول عليه الصلاة والسلام بألحان أهل الغناء المطوطة، التي تحرف الكلم عن مواضعه، وتقطعه وتصله، وقد يخرج الكلام بهذا اللحن عن معناه، فلما مروا به خرج عليهم بتلاميذه ومعهم عصي الخيزران، ففرق جمعهم، وأفسد نظام سيرهم فأخذته الشرطة إلى والي البلد، فلما دخل عليه قال له: بمثل النغمة التي كانوا ينشدون بها: السلام على، على عليكم، عليكم، كم، كم، ما اح، ما اح، ما أحلى عيونك، وما أبهى جبينك يا سيد الملاح، لاح!!

فغضب الوالي فقال: ما هذا هل أنت مجنون؟ أهكذا يخاطب الولاة؟ قال: هل الوالي أعظم من رسول الله؟

قال الوالي: معاذ الله، وأين أنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: إذا غضبت لأني سلمت عليك بهذا النغم، وتغزلت فيك هذا الغزل، فكيف تدعهم يوجهون هذا إلى مقام سيد البشر وخاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم؟ قال الوالي: الحق معك» [٨].

رجوعه عن بعض آرائه :

كثيراً ما جنحت به الأساليب الأدبية، أو سار خلف رواء فني فبالغ مبالغة ربما تكون غير مقبولة، أو اجتهد اجتهاداً لم يوفق فيه إلا أنه يرجع كثيراً عن ذلك، ويعرف خطأه، ويأسف على ما سلف منه، نسأل الله أن يعفو عنه، يقول مرة: «أنتقل بكم في هذا الحديث إلى أزهر عهد من عهود الحضارة الإسلامية، إلى أعلى ذروة في سلسلة أمجاد العرب، إلى الدور الذهبي، إلى الأيام التي كانت كلها أعراساً» [٩] وهو يريد الحديث عن عهد هارون الرشيد إلا أنه عندما أعاد النظر في الكتاب مرة أخرى لم يعجبه هذا الأسلوب، فكتب في الهامش «كذلك قالوا، وما جاء ذلك إلا من أكاذيب قصة ألف ليلة، والحق أن أزهر عهود التاريخ عهد أبي بكر وعمر..»

ولعله يقصد عهد النبي صلى الله عليه وسلم وعهد الصحابة رضوان الله عليهم.

ويتحدث مرة أخرى عن سيد شعراء الحب العذري الشريف الرضي فيقول: «وما أنكر عليه أهل زمانه ما قد تنكرونه اليوم، ما أنكروا عليه أن جعل من الموسم الأكبر موسماً للقلوب الهائمة والأبصار الشاردة» [١٠] فيعلق «هذا كلام قلته أنا، وأنا أنكره اليوم، ولا أقر الشريف ولا ابن أبي ربيعة قبله، ولا أقر أحداً أن يجعل من موسم للعبادة موسماً للأدب، ومعرضاً للجمال وغفر الله لي ولهم» [١١].

ويقول مرة عن بشار «لي فيه كتاب صغير، وهو من كتبي التي لم أعد أرضى عنها فلذلك لم أعد طبعها» [١٢].

وهو بشر يصيب ويخطئ، أعجب مرة مما كان لا ينبغي منه العجب، وهو كون المعتزلة يكرهون الناس بالقوة على قبول آرائهم، على ما فيها، وهم أهل أهواء، وإنزال للعقل منزلة فوق منزلته، كما يقول عنهم السلف، لا للباطل كسروا ولا للحق نصروا، وإشادته بأحمد بن أبي دؤاد، وعجب من المسألة التي صارت مدار الخلاف في محنة الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله، فهو يرى أنها «مسألة لا تستحق هذه العناية، وليست من أركان الدين ولا أمرنا الله بها، ولا يسألنا يوم القيامة عنها ، وهي: هل القرآن مخلوق أم لا؟» [١٣] ولا نشك أنها في غاية الأهمية لأنها تتعلق بإثبات صفة من صفات الله تعالى، وصمود الإمام أحمد رحمه الله له ما يبرره.

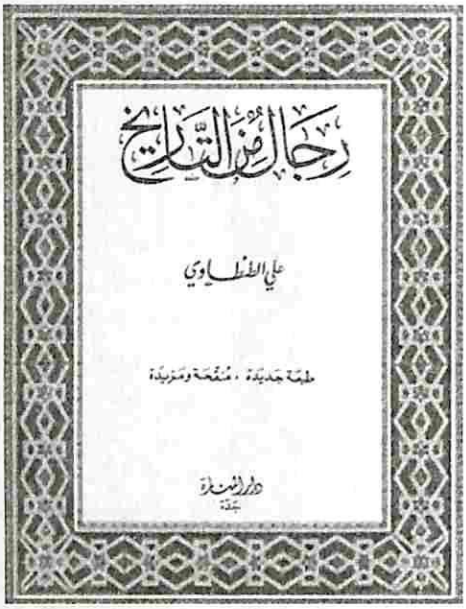

وتراث الشيخ علي الطنطاوي بحاجة إلى دراسات من متخصصين يعرفون قدره وسبقه لمعالجة قضايا جديدة ملحة، يتبوأ في دراساتهم العميقة منزلته اللائقة به.

تلك لمحات سريعة عن هذا الكتاب، لم أحص فيها كل مزاياه وإيجابياته، ولم أحصر كل ما يلحظ عليه، أو ما يكون مجالاً لوجهات النظر المختلفة. ■

الهوامش:

(١) رجال من التاريخ ص٦.
(٢) السابق ص ١٢٠.
(٣) السابق ص ١٣٧.
(٤) السابق هامش ص ١٣٧.
(٥) السابق – ص١٨٣.
(٦) السابق – ص١٨٢.
(٧) السابق – ص ٤٢١ وما بعدها.
(٨) السابق ص١١٧.
(٩) السابق ص ١٧٤
(١٠) السابق هامش ص١٧٤.
(١١) السابق هامش ص ٣٥٦.
(١٢) السابق ص ١٣٤.